قصة قصيرة

الساقية

ادريس الصغير

الصقت وجهها الصغير بزجاج نافذة القطار وبكت فانسدل الشعر على الوجنتين والكتفين .

قالت :

ـ أخبرني حين نصل الساقية .

قلت :

ـ ما زالت تفصلنا عنها ربع ساعة . ستتعبين من الوقوف .

تشبثت بحافة النافذة السفلى وازداد وجهها التصاقا بالزجاج . تأملت هذا الجسد الذي كان رشيقا في يوم ما ... ساقان رفيعتان معروقتان مصفرتان دستا قدماهما في نعل جلدي قديم . يدان واهنتان ، وكومة عظام حشي بها ثوب باهت الالوان .

ـ ستتعبين من الوقوف .

كانت الحقول الخضراء والدواب ومساكن الفلاحين والطيور وشقائق النعمان وصوت احتكاك العجلات بالسكة الحديدية . وكنت أدخن سيجارتي في صبر مقيت صامت رهيب .

ـ أخبرني حين نصل الساقية .

قلت ... (هل نجد أحدا في انتظارنا على رصيف المحطة ؟ الورود والعناق والقبل والدموع !) .

امتدت لي يد المرأة الجالسة بجانبي بفطيرة ساخنة . شممت رائحة السمن ورأيت الكحل في عيني المرأة والحناء تخضب اليدين . كان زوجها يحاول اثبات مؤشر « الترانزستور » على محطة معينة فتتدفق الحان اندلسية تعلو تارة وتخبو أخرى ، والرجل في انشغال كامل بتحويل الجهاز في الجهات الاربع. لسعت يدي سخونة الفطيرة وفهمت من اشارة المرأة ان عليّ أن أشطرها شطرين . حولت وجهي نحوها . كانت ملتصقة تماما بزجاج النافذة تغسلها شمس الضحى بأشعة ذهبية دافئة . لم تلتفت اليّ بتاتا . دسست في يدها نصف الفطيرة فتأوهت وهي تشم رائحة السمن ، ثم مضت تلتهم وهي تمص أناملها الرفيعة والدمع ينسكب على الخدين . دسست في يدها نصف الفطيرة المتبقي . أخرجت المرأة «الطرموس» من سلتها وسكبت لي كوبين من الشاي الساخن . كانت قد ازاحت الآن النقاب عن وجهها فتبينت شفتين مكتنزتين ووشما رفيعا في أسفل الذقن .

قلت ... (هل سيذكرنا أحد بعد هذه الغيبة الطويلة ؟ هل عاد الاصدقاء أم ما زالوا يحشرون في الغرف الضيقة المظلمة النتنة ؟ هذه تباشير العيد . وهذه ورقة العفو تربض في جيبي) .

كانت جرعات الشاي تسري في أوصالي فأتلمظ بشفتيّ متلذذا طعم السكر والنعناع ، ممتصا حبات الشاي السوداء في ثمالة الكأس . كان فول السجن الممدود وعدسه الفاسد وماؤه الملوث قد أفقدنا كل طعم . ونظرت اليها . كانت ساهمة . وكانت رائحة الاقحوان قد بدت تعبق المكان ، والقطار ينزلق بجنون فوق القنطرة الحديدية . سحبت الكأس من يدها ، فغرست أصابعها في خشب النافذة وازداد وجهها التصاقا بالزجاج .

قالت :

ـ انها الساقية .

قلت :

ـ نعم . انها الساقية .

ـ أما زالت كما هي ؟ أريد أن أراها .

ـ ما زالت كما هي ، يلهو الاطفال عندها تحت شجرة التين العجوز .

ـ حين ننزل ، سنذهب لنجري هناك كما كنا نفعل في السابق .

ـ نعم ، سيحصل ذلك .

كانت الآن قد بدأت تخبط بيديها ورأسها الزجاج. نظرت الى رجلي الخشبية وعكازي الطويلين اللذين وضعتهما أسفل المقعد . خفف القطار من سرعته فرأيت الدور والمعامل والسيارات والناس والقطارات الرابضة في المحطة . ناولني الرجل العكازين بعد أن دسّ الجهاز في جيب معطفه ، ثم قادني نحو الباب . وضعت المرأة نقابها على وجهها وقالت :

ـ لا تخف . سأنزلها .

على الرصيف الذي أصبح خاليا ، كنا نجاهد لبلوغ باب المحطة . كانت تتمسك بساعدي وهي تتعثر بأحجار الرصيف وحفره .

المغرب